بسم الله الرحمن الرحيم

ملاحظات وانطباعات بشأن الردود على مقال كان منشورا على اللوحة

١ وجدت في مقالات الأعزة شواهد واضحة على العلم، والقدرة على التعبير، والجرأة في الطرح، وإني إذ أشكر هؤلاء الأعزة على تجاوبهم مع المقال أسأل اللّه أن يوفقهم لكل خير وفق له محمدا وآل محمد عليهم الصلاة والسلام

٢ خمنت في بعض المقالات نفس المشكلة التي واجهتُها كثيرا وعانيت من آثارها طويلا، وهي أن هناك من يكتفي بتحليل المسائل الدينية ذهنيا وفهمها نظريا، وبما أنه ليس لتحليل الدين مقياس موضوعي يفرق به بين الذهني وغيره بشكل قاطع، وبما أني أنتظر الفرج لكل أحد في كل حين، حاولت اعتبار المقال بداية جديدة بدل تلقيه مجرد تصورات ذهنية قد سطرها الكاتب لغاية أخرى غير بيان وضعه وإعلان موقفه ودعوة الآخرين إليه

ومن هذا الباب أني وجدت في المعلقين مَنْ رفض الاقتراح لأنه يؤدي إلى تشويه الدين، فكان المتوقع أنه يشير إلى أهمية الولاية وموضعها من الفكر الديني بل وتأثيرها على الدين كله، ولكن وضع الكاتب جعلني أراجع مقاله وأعاود النظر فيه فبدا (أو خُيّل) لي أنه وإن كان قد ذكر الولاية ولكنه اكتفى بوصفها فقط بدل أن يتناولها كركيزة الدين التي بها يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ، ولكني مع ذلك تمنيت أن يكون المقال منعطفا وبداية لتعامل جديد، وأرجو أن لا يخيب اللّه أملي إنه على كل شيء قدير

٣ ومن جهة أخرى كان مؤسفا لي أن أجد في بعض المقالات ما يعتبر مديحا لي، ولا أظن خافيا أني لا أرتضي المديح، خصوصا إذا بدا لي أن الشخص

استهدف ذلك، لا أنه وجدني في طريقه فذكرني كما يذكر المرء أعوانه وإخوانه حسبما لهم من تأثير في حياته فيبدي لهم مودته...

كما تأسفت أيضا حيث وجدت بعض الأشخاص مستمرين في تكلف العلم والتعمق في المسائل رغم محاولاتي المتكررة لتنبيههم إلى خطأ هذا الأسلوب في التعامل مع مسائل الدين، مضافا إلى أن حال المتكلف مما لا ينطلي على من كان مهتما بالدين ملمًا بأساسياته...

ولكني رغم كرهي للمديح واستيائي من التكلف لم أتصدّ لأحد بخصوصه مخافة أن يؤثر ذلك في حرية المقالات ويربكها

الولاية...

من الملاحظ أن كثيرا من المقالات قد عبرت عما لي من التأثير في الوضع الموجود هنا بـ[الولاية] . على الرغم من أني لا أحبذ إطلاق كلمة الولاية بهذه الصورة لكني أستفيد من هذه الفرصة لأذكر شيئا، عسى أن يجعل اللّه تعالى فيه نفعا، وليس ذلك عليه بعزيز، فأقول:

ما عبر عنه بـ[الولاية] إنما هو ناتج في الحقيقة عما لي من الولاية على نفسي، فإن اللّه القدير جعلني كجميع الناس قائما على نفسي وشؤونها فأفعل بها ما أشاء لا ما يشاء غيري (إلا أن أريد بنفسي أن أطيع غيري) ...

فلي – مثلا – الولاية على كلامي فأتكلم بما أشاء ولمن أشاء وكيفما أشاء، ولا أرى لأحد أن يفرض عليّ في هذا الصدد شيئا أو أن يمنعني عن شيء إلا أن يرى فيما أفعل مخالفة فقهية بيّنة لا يحتمل العذر فيها، فله – بل عليه – أن يأمرني بالمعروف أو ينهاني عن المنكر...

هذا وبما أن لغيري أيضا الولاية على نفسه، فله – مثلا – أن يسمع ما يشاء ولمن يشاء وكيفما يشاء، فلأن لا تتضارب ولايتي على كلامي مع ولاية المستمع على سمعه أتصور حلولا واقعية أربعة:

الأوّل: أن أكون أنا ممن لا يهمه المستمع، فأتحدث بما أشاء، ويستمع

المستمع من جانبه ما يشاء وكيفما يشاء، فلا تضارب بين الولايتين...

الثاني: أن يجعلني أحد لأتنازل له عن ولايتي على كلامي، بأن يستأجرني أو يجبرني – مثلا – لأحدثه (أو أكلم غيره) بما يشاء، وهذا متفشّ جدا. ففي هذا الفرض كذلك لا تضارب بين الولايتين بعد أن خضعت إحداهما للأخرى

الثالث: أن أجعل أحدا (أو يجعله غيري) بطريقة أو أخرى ليتنازل لي عن ولايـتـه على سمعه، فيسمع ما أشاء أنا، لا ما يشاء هو، فأكون قد سلبته ولايته لتخدمني، فلا تضارب أيضا بين الولايتين

ولايات متآخية

الرابع: أن تبقى لكل منا ولايته على نفسه على أن نشترك فيما تنتظم به الولايات وتتآخى بدل أن تتضارب، وهذا هو الفرض الوحيد الذي لابد منه في الهدى، وإني أحاول توضيحه فأقول:

لو أن الولاية على النفس التي بها يعيش الإنسان كانت مجردة عما سأشير إليه لكان فساد في الأرض وسفك دماء كما في الوحوش من الحيوانات فإنها أيضا مزودة بما عبرنا عنه بالولاية على النفس، غير أن ما فيها ليس بأكثر مما يدفعها لحماية نفسها وتأمين حاجاتها، بخلاف الإنسان حيث زُوّد بالتطلع إلى التزكي والتغير، وبالقدرة على أن يزكي نفسه ويغيرها، وهذا ما يجده الإنسان في نفسه ويلحظه واضحا في واقع الناس

وبما أن اللّه العزيز الحكيم الذي خلق الإنسان متطلعا إلى التزكي وقادرا عليه وفّر له أيضا وسيلة التزكي الصالح، وجعل فيه اندفاعا فطريا لابتغاء تلك الوسيلة، والوسيلة هي الولاية المعصومة المتجسدة في النبي وآله عليهم السلام

فولاية كل منا على نفسه هي التي تدفعنا لأن نتولى الأئمة عليهم السلام، فهذا التولي ليس تنازلا منا عن ولايتنا على أنفسنا، بل ممارسة لها، إذ لا يقدر أحد على العمل بولايته بحق إلا بهذه الطريقة وحدها، وإلا لضعف عن ممارستها فتنازل عنها للشيطان وأوليائه...

فولاية الإمام لا تقهر الولايات كما يفعل ذلك الولايات الظالمة، بل تحميها وتقويها وتؤمها وتهديها، كذلك يجدها المؤمن، ولذلك يسعى ويسارع إليها ويجاهد لأجلها...

وبنفس الملاك، أي أنها إذ تهدي الولايات وتوجهها وجْهَتَها الصالحة تجعلها متآلفة ومتعاونة، وذلك كولاية المؤمنين لبعضهم...

هذا ولا يخفى أن ما ذكرته ليس إلا جانبا من جوانب الولاية التي للإنسان على نفسه، فإن لها أبعادا عديدة يمكن الإشارة إليها بلحاظها أيضا، فيمكن – مثلا – النظر إليها بلحاظ أن الإنسان موجود اجتماعي، أي أنه مخلوق بحيث يكون مع الناس ويتفاعل معهم وينفعل بهم، فهو لا يستطيع التغير إلا بهم ومعهم، وتنعكس هذه الصفة الإنسانية فيما هو ملاحظ من نزعة الإنسان للتدخل في شؤون الآخرين...

ومن جهة أخرى فإن طريقتي في الحديث أو التعامل مع الناس إنما تعكس ولايتي لأمر واتباعي لإمامة، فبهذا اللحاظ أيضا يصدق القول بأن لي **ولاية**، شأني في هذا أيضا شأن جميع الناس فإن لكلٍّ وجهةٌ تنعكس في تعامله مع الناس ومع الأشياء، فهم لا يختلفون في هذا وإنما يختلفون في الوجهة التي يتبعونها، والمولى الذي يتولونه

الأشياء تنتظم بالإمامة

هذا الذي أشرت إليه آنفا من أني أتولى أمرا وإمامة، هو أهم ما يمنعني عن تناول الأفكار الدينية بالطريقة السابقة، وبالأحرى إن هذا أكثر ما يخيفني من التركيز على المفاهيم الدينية. لتوضيح هذا أقول:

معنى كوني مؤمنا بالأئمة عليهم السلام ومتوليا لهم أني أعرف – بدرجة – أمرهم وما يجسد ولايتهم، فأحاول أن أتصرف في أموري وأن أستعمل ولايتي وفق ما أعرفه من طريقتهم (ع) ولكن لا في عرضهم كزميل لهم، بل في طولهم كتابع لهم باعتبارهم عليهم السلام أئمة أجد الحق معهم ولهم وفيهم، فأوالي بهم

من والوا وأعادي من عادوا، وأسير على هداهم

فمما عرفته منهم (ع) أن طاعتهم بعد معرفتهم هي مفتاح الأمر وباب الأشياء، وكما أن هذه الطاعة هي الأساس الوحيد الصالح لتنظيم وهداية علاقة الإنسان مع الله والناس والكون، أثبتت لي التجربة والملاحظة أن بهذه الطاعة وحدها تهتدي تطلعات الإنسان وتتوازن نوازعه التي لولا ولايتهم وطاعتهم لتضاربت وطغى بعضها وانخنق بعضها الآخر، فمثلا توجد في الإنسان نزعة فطرية إلى الآخرة، ونزعة طبيعية للدنيا، فقد تطغى النزعة للدنيا فتسيطر على النفس، وقد يكون العكس كما ينهجه المتصوفة الصادقون، والولاية الصالحة هي وحدها التي توفق بينهما وتجعلهما متوازنتين متعاضدتين...

الفكر...

و مما تؤثر فيه الولاية وتهديه الطاعة هو الفكر، فإن المفكر وإن استطاع التفكير إلا أن فكره لا يهتدي إلا أن يكون إماميا، أي أن يطيع الإمام المعصوم عن طريق الكون مع من يدفع إليه ويجسد ولايته وطاعته، فإذا كان كذلك قدر أن يفكر بحق، وإلا كان كما قال تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ»، وينبغي أن يكون هذا واضحا لكل من دقق في الأفكار الدينية التي لا يفكر أصحابها بإمام وإن تصوروا أنفسهم إماميين، وهم كثيرون جدا

فليس الأمر كما قد يُتصور – بل كما هو شائع – من أن هناك مفاهيم وأفكارا دينية ذات قيم ذاتية في نفسها، ولكن بما أن الوصول إليها – أو إلى جميعها – لا يتيسر للناس إلا بمعلّم، فكانت الحاجة إلى أناس معصومين ليبينوها لهم، أو – كما يبدو من بعض المقالات المنشورة هنا – أن الإنسان بحاجة إلى الولاية لتضبط له الفكر وتمنعه عن الانفلات، أو – كما يراه بعض مَنْ هنا أيضا – أن المرء بحاجة إلى الولاية لأنه لا يستطيع الإيمان بالفكر من دونها، فهو بحاجة إلى الولي لا ليضبط فكره، بل ليوجهه أيضا إلى قلبه ويرعاه فيه...

في الصور المذكورة جُعل اتّباع الإمام وسيلة للحصول على الفكر أو للإيمان به، فهو إذن ليس الولاية المطلوبة، فإن الولاية هي نوع تعلق بالأئمة (ع) لا يطلب به الموالي أي شيء غير الكون معهم فحسب، فهو يتعلم ويؤمن في طول كونه معهم، أي أنه يحبهم ويندفع إليهم بدافع متأصل في فطرته من دون النظر إلى ما يستتبعه ذلك، وإن علِم أن اتّباعهم (ع) سيوفر له العلم والإيمان وغير ذلك مما تطلبه أيضا فطرته، وهذا يختلف عن أن يكون اندفاعه إليهم (ع) وارتباطه بهم لأجل الحصول على العلم والإيمان، وهذا معنى ما في روايات من أن اللّه تعالى أخذ ميثاق الناس بولاية الأئمة عليهم السلام

التفكير بطاعة...

كل هذا الكلام الطويل الذي قد يبدو معقدا لأشير من خلاله إلى أن الفكر المهتدي إنما يكون في طول الولاية، أي أنه يفكر وهو إماميّ، بدل أن يحصل أولا على الفكر فيندفع به نحو الأئمة (ع)، أو أن يندفع إلى كل منهما بصورة مستقلة وفي عرض واحد، فإنه في كلا الفرضين سوف لا يحصل على شيء من الفكر أو الولاية، إذ أن الولاية تأبى أن تكون وسيلة لشيء، كما أن الفكر لا يصلح إلا بمروره عبر الولاية

فبموجب هذه المعرفة وحفاظا على هذه الموازنة الدقيقة أجاهد لأن آتي الفكر عبر الطاعة للإمام ومن بابها لا العكس، كما أستعمل ولايتي على من يطيعني لأجعل منه **مفكرا بطاعة وولاية**، لا مطيعا بتفكير، فإن هذا لا يتحقق، كما لا يمكن أن تكون ولاية واتباع بلا تفكير ومعرفة...، ولا يخفى أن هذه الموازنة تتطلب مني كثيرا من الجهد والجهاد، خصوصا وإن لي تجربة مريرة تبيّن لي من خلالها أن التركيز على الأفكار يغذي النزعة الفردية التجزيئية في التعامل مع الدين، ولا أظن خافيا أنها شائعة بين الناس وإن كانت مخالفة للفطرة وباطلة، كما تبيّن لي من جانب آخر أن تجهيز الأفكار والمفاهيم الدينية يعوّد المستمع على التخاذل والاتكالية في الفكر، بدل أن يدفعه إلى التفكير الذي لابد منه في الولاية

هذا مضافا إلى أني لا أخلو عن أخطاء ومبالغات تؤثر في الموازنة المطلوبة، لا فقط في العمل بها، بل في تشخيصها أيضا

تنـبـيـه :

وفي الأخير لابد من تنبيه القارئ إلى أن في هذا المقال ما هو بحاجة إلى كثير من الإيضاح والشرح، كما أن فيه ثغرات وقفزات، فأرجو أن يتعامل معها لا كمقال متكامل، وإنما كمؤشرات ناقصة قد لا يخلو من بعض الأخطاء، وإن كنت أرى أن أخطاءها المحتملة لا تؤثر في أساسيات المقال وفائدته المرجوة إن شاء اللّه

ومما أرجو أن لا يخفى على القارئ أني لم أُثِر ما أثرته في هذا المقال لأجل التطبيق المباشر، بل للإشارة إلى أن الحركة الطبيعية تكون كذلك، فمثلا الطريقة التي عبرت عنها بـ«**التفكير بالطاعة**» إنما هي الحركة الواقعية للإنسان الطبيعي، أي أنه كذلك يفعل باعتباره مفطورا على الطاعة والتفكير، وهذا ما يفعله الناس في حياتهم الطبيعية بشكل عام، وما هو شائع من محاولة التدين بالتفكير من دون طاعة، أو بالطاعة من دون تفكير فليس إلا لأن الدين ليس الآن حركة طبيعية

قلت هذا لأني جرّبت أن هنا من يجزئ مسائل الدين ويختزلها عن العوامل والظروف التي تجعل التدين طبيعيا منسابا، فإذا سمع أو قرأ مثلا أن التدين لا يكون إلا بالتفكير بالطاعة سأل عن كيفية ذلك فحاول أن يتكلفه، وإذا قيل له أنه مما لا يصح السؤال عنه تكلف الامتناع عن السؤال... ولو أنه كان منطلقا في طلب الدين مما هو موجود فطريا في نفسه من خشية اللّه والإيمان بالآخرة لاتّبع من دلّه عليه وكان معه وهو يفكر، ولم يسأل عن كيفية الاتباع أو التفكير أو كيفية الجمع بينهما... لا لشيء إلا لأنه بخلقته مفكر متبع ويمارسهما معا في حياته الطبيعية...

محمد علي باقري

١٢ ربيع المولود ١٤٢٢